

توظيف الرمز في الشعر العربي الحديث المعاصر

قندسي عبد القادر

أستاذ محاضر "١١"

جامعة سيدي بلعباس

تقيّد القصيدة العمودية على نظامها الذي ولدت به في هندستها وفي انقسامها إلى (صدر وعجز) (أي الشطر الأوّل والشطر الثاني) مع المحافظة كذلك على الأوزان الخليلية المعلومة ووحدة القافية وإن تنوعت حين كان الشعر نظام حياة وديوان العرب في رواية أخبارهم وسرد أحداثهم، وسبل عيشهم.

مع تطور العصور في نظم الحياة بدأ يتغير هذا القلب نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم، وامتزاج الثقافات (العربية-الفارسية-الهندية الخ...) حيث ظهرت أشكال وأنماط لم تكن معروفة (المطرّد، المربع، المسمط، الخمس، الموشح) في تجاوز المعاني والصور والأفكار إلى تجارب فنية لها صلة وطيدة بالشكل والهندسة المعمارية للقصيدة العمودية، وامتدّ هذا التجديد إلى الأوزان والقوافي والميل إلى ابتكار أخيلة وصور مستحدثة تلي متطلبات العصر الذي يساير نظاما لتحديث ما.

أدت التجربة الجمالية للشعر الجديد متمثلة في حركة التجديد إذ تختلف الفلسفة الجمالية لهذه الحركة اختلافا جوهريا عن الرؤية والفلسفة القديمة لارتباطها بطبيعة العمل الفني وليست مبادئ خارجية مفروضة في الشعر المعاصر الذي يصنع لنفسه جماليته الخاصة فيما يتعلق بالشكل والمضمون¹.

يغدو التجديد ظاهرة فنية تتلقاها الأذواق " والشعر فن جديد دائماً فهو
كأنما يشتري الانفعال ورعشة المشاعر وإغراق الذهن في التأملات " ².

ظهر الشعر المعاصر محولاً استيعاب الثقافة الإنسانية بمشاربها الاجتماعية
والفنية والجمالية، مع تحديد موقف الإنسان منها، وبذلك امتلك " القدرة
على إثارة وجدان القارئ وتعاطفه عن طريق الاستمساك الأمين بحقيقة
الطبيعة، وقوة إثارة الإحساس بما يضيفه خاطر الشاعر إلى الطبيعة من أضواء
وألوان " ³.

تلوّنت سماء العراق بحركة شعرية معاصرة في إيجاد أنماط جديدة في
شكل القصيدة العربية ولبسها لبوساً مغايراً تماماً : " دعا إلى تجارب تشكيلية
للقصيدة " ⁴.

رأى الذين تسابقوا إلى التهليل وإلى المعتقد تسمية هذا الشكل الجديد
"بالشعر الحر" ليتناسب وحرية كل شاعر في التعبير عن غاياته التي يريدتها
"إنه شعر ذو ذوق سطر واحد ليس له طول محدد وثابت وإنما يصح أن
يتغير عدد التفعيلات من شطر إلى شطر ويكون هذا التغير وفق قانون
عروضي يتحكم فيه " ⁵.

دار سجال معرفي هائل بين أنصار المحافظة على القصيدة العمودية
دعاة التجديد الذين حرروا القصيدة العربية من كافة القيود، وقضوا على
الجمود والرتابة وركوب التحرر في رحابة الخيال.

تأسيساً على ما سبق أضحت الصورة الشعرية في القصيدة المعاصرة
دالة على الخيال الخصب، لأنها تصوّر الواقع كما يراه الشاعر في مخيلته
وليس كما يراه في الحقيقة.

ومادام الشاعر ينقل حالة شعورية يعيشها وتتعدى نقل الأخبار إلى عرض أحوال الشاعر ورغباته النفسية، تختلف الرؤية بين هذين الشكلين (في النظام الموسيقي والشكل المعنوي الخارجي) بهذه الفلسفة الأدبية تتحوّل التفعيلة " صورة موسيقية متكاملة تتلاقى فيها الأنعام وتفترق، ذلك لأنها وحدة متكاملة تضم مفردات متنوعة في إطار شعري شامل حيث لها دلالاتها الشعرية" ⁶

تتركشت القصيدة المعاصرة بعدّة ظواهر فنية ألّبستها حلّة مبهرة تروق لها النفس وتهيم بها الروح، وتحرك أذواق القراء من بين هذه الظواهر: " الرمز" الذي يتميز بقيمة جمالية تضيفي على القصيدة : جمالية معنوية متميزة بدءا من اللغة إلى الصورة إلى الشكل إلى البناء إلى الميول وإلى الأهواء النفسية.

يلجأ الشاعر المعاصر إلى الابتعاد عن المباشرة، مستخدما الأبعاد الرمزية مستعينا باللغة الرامزة لتثير في النفس معاني الحيرة والدهشة!

- الرمز: لغة: هو الإشارة أو الإيماء بالشفيتين أو العينين أو الحاجبين أو اليدين.

- يقال: رمز يرمز رمز.

- والرمز: هو الرجل الكثير الحركة.

- أمّا اصطلاحا: له تعريفات عدّة فهو لا يقف على تعريف

اصطلاحى واحد وذلك لغنى العربية، ويمكن اعتباره شيئا ممثلا لشيء آخر وليس هو بمعنى الإشارة التي يحال فيها إلى شيء محدد ⁷

وبصيغة مخالفة تدل على شراء العربية هو ما أخفي من الكلام والتكتم عن شيء من كافة الناس، إذ للرمز قدرة على التعبير في أدق المعاني والأفكار" ⁸

يستعين الشاعر بالرمز لينحرف عن التصريح بالمباشر إلى مراده فتولد في المشاعر غايات كثيرة، ورؤى عديدة " وبهذا فالرمز وسيلة تعبيرية غايتها إثراء التشكيل اللغوي" ⁹

في محل ثان " الرمز موسيقى من آخر للتعبير عن أسرار النفس ويظهر هذا بوضوح في القيمة الصوتية والموسيقية الموجودة في اللغة ذاتها شريطة أن لا يتحول إلى لغز بل يجب أن يظل الرمز ذا شفافية " ¹⁰.

بشكل آخر أيضا الرمز جمع لمعاني مختلفة وأحيانا عمق سحري يجتبي خلف المظاهر الجلية، وتجنح طبيعته نحو الجمالية، لأنّ توظيفه في القصيدة المعاصرة يغدو توظيفا فنيا يتفق والتجربة الشعورية، يرتبط بالحاضر والماضي والمستقبل، يزيد في تنويع الدلالة " المبدع يجد ضالته في توظيف الرموز بأسلوب ذاتي أو جماعي، أي يقوم بالتعبير عن حالته أو حالة مجتمعه لمعاش " ¹¹.

غدا الرمز ظاهرة مميزة في الشعر المعاصر بأنماط مختلفة:

أنواع الرمز:

• الرمز العلمي: هو أداة تسير الفكر، وتشير إلى الأشياء ويسعى إلى التقريب والإيجاز وطبيعته أنّه يشير إلى موضوع ما دون أن يرتبط به، لأنّه ينشأ نتيجة لعملية ذهنية.

• الرمز اللغوي: " هو رمز إصطلاحي تشير فيه الكلمة إلى موضوع معين إشارة مباشرة" ^{1 2}.

- ومن بين ما يدل عليه الرمز، اللامباشر من الأشياء والمواضيع كما يمكن تسميته علامة وهي تدل على مجرد قضية منعزلة من جملة قضايا كثيرة قريبة الصلة بموضوعها أو ترتبط بجزيئية أو حيثية من حيثيات موضوعها شريطة اشتراكها في مزية ما.

- الرمز الأدبي: وهذا النوع يعتمد إلى الإيحاء والإشارة يستند إلى علاقات خاصة ليست حسية مباشرة، العلاقة فيه ذاتية تتجلى فيها الصلة بين الذات والأشياء وليست ببعض الأشياء وبعضها الآخر ^{1 3}.

- الرمز الأدبي تركيب لفظي يستلزم مستويين:

- مستوى الصورة الحسية التي تمثله .

- مستوى الحالات المعنوية التي ترمز غليها بهذه الصورة، لأنه يتحرك بحرية كاملة بين طبيعته الحسية وتركيبته التجريدية.

عندما تتكرر الصورة عند الشاعر في كل مرة تغدو رمزا ويهدف إلى ميل نحو المطلق على الرغم من تحركه من أسس مادية، فالرمز الأدبي يسعى دوما نحو مزيد من الخصوبة ^{1 4}.

كلما تكررت العلامة الدالة على شيء بعينه في ظاهرة ما، إلا أصبحت رمزا نستثير به لنكشف أسرار الغوامض من الحالات كالظلام الذي يرمز إلى الوحشة والخوف، والنور إلى الوضوح والإبانة.

الرمز الشعري:

يحافظ الرمز الشعري على التماسك الداخلي للقصيدة المعاصرة، ولعلّ المسألة الأشد قيمة في الشعر المعاصر هي اتكاؤه على الرمز، فيصير بمثابة الخيط السحري الذي يجعل الشعر الحر مجتمع العناصر والبنى الداخلية ويكسب السياق العام مكانة كبيرة ويكون له الدور الرئيس في إثراء التجربة التي يكابدها الشاعر " لأنّ الرمز من حيث هو وسيلة لتحقيق أعلى القيم الشعرية هو أشد حساسية بالنسبة للسياق الذي يرد فيه " ¹⁵.

يرتبط الرمز الشعري بإحساس الشاعر ارتباطاً وثيقاً لأنه يمنح للمعاني داخل القصيدة مغزى خاصاً، أنّ مضار التجربة الشعرية هي النفس الإنسانية " إذ أنها تستدعي الرموز وتحدد كيفية التعامل معها وطريقة توظيفها " ¹⁶.

تثبت الصورة الشعرية الرمز في حالات وكيفيات توظيفه حين يجعل المصورة ذات طابع حسي، وتعد قضية الرمز الشعري واحدة من أهم قضايا القصيدة الحديثة، لأنه منهل خصب من مناهل التجربة الشعرية وحالة من حالات التعبير عن خوالج النفس ومكنوناتها، لأنه عالم مكتنز بالخيال وينعزه التخيل بالكيفية المناسبة للتجربة التي يعايشها الشاعر. ¹⁷

الرمزية:

تعدد أنماط الصورة الشعرية، إذ نجد الصورة البلاغية وهي أن تقترن الصورة التي ترسمها نفس الشاعر بالمجاز حتى تتألف الصور البلاغية مع

التي تنجزها نفس الشاعر ولا يحدث بينهما تنافر، وفي حالة تباعد الصورتين يحدث خلل في التركيب الداخلي للقصيدة المعاصرة.

التصوير الرمزي:

تتعدد الصورة الرمزية وتختلف من نفس إلى أخرى، إذ تقترب الصورة بالعواطف والأحاسيس لذا كان اختلافها طبعياً، كما أشار أحد النقاد أنّ الرمز نمط من أنماط الصورة الشعرية في إطار الصنعة للكلام والإبداع الشعري فقال: " ذلك لأنّ الجمال الشعري في الأداء غير الشعري والصورة التي هي أحسن وسيلة للأداء الخلفي الذي يستعين بقدرة الشاعر على التصوير " 18 .

تكون للصورة أبعاد رمزية تتأثر بالحالة الروحية في الحياة الإنسانية، لأنّها صورة تعبيرية تشكل في وعي المبدع بنظام لغوي معين، يكون هذا النظام اللغوي قادر على إبراز الدلالات الكامنة في التجربة الشعرية، ذلك لأنّ اللغة بأفضل " تعبير لأنّ اللغة في أصلها رموز اصطلاح عليها، كثير في النفس معاني عواطف " 19 .

يخترق الشاعر المعاصر عالم الوضوح لأنّه يفضح المغامرة الشعرية هذا ما جعله يهيم بالشعر بعيداً عن مدركات العقل على عوالم المشاعر والأوهام البعيدة، هذا ما فرض عليه أساليب جديدة في عملية في كسر المعهود وتجاوز العالم الواقعي.

تستند حركة الحداثة الشعرية على تنوع وتعدد الصورة الرمزية " الصورة هي التي تثبت إيقاع ألوانها وموسيقية تراكييها ودلالاتها المختلفة " ²⁰.

لعل حضر الرمز في الشعر العربي المعاصر يلفت انتباه المتلقين، والأكثر جلبا للانتباه العلاقة " بين الرمز والصورة " هي التي تحرك التفاعل بين بلاغة الصورة الشعرية، والصورة التي يعمل الرمز على تثبيتها.

" الصورة هي الرحم الدافئ الذي ينمو فيه الرمز كما أنها تعمق أبعاد الرمز المعروف وبالمقابل الرمز له تأثير في الصورة فهو يساعد على تعميق الوعي ضمن الصورة، ومثلما تجعل الصورة الرمز مشخصا محسوسا، فإنّ الرمز يمنحها البعد الدلالي الذي يخترنه، فالقصيدة محصنة بالدلالة السطحية التي تخفي تحتها الدلالة الضمنية ما يوحي بعلاقات عديدة منها:

- الرمز والصورة.
- الرمز والاستعارة.
- الرمز وظلال المعنى.
- الرمز والإشارة.
- الرمز والعلامة " ²¹

ولا غرابة أيضا أنّ القصيدة العربية المعاصرة مأزومة في شدة تحصنها بالرموز والعلامات التي تثبت تجربة الشاعر متمثلة بالإيقاعية الرمزية. ²²

ونستنتج مما سبق أنّ الرمز أهم الظواهر التعبيرية في القصيدة الحداثيّة، يحدث يسمو الرمز علامة ناجحة في شيوخ الصورة، ويلجأ

الشاعر المعاصر إلى الصورة الرمزية ويكفيها لتجربته الشعورية المناسبة للرمز، الذي يستلهم له قوانين وموسيقى خاصة بنفسية الشاعر الداخلية (قلق، مضطربة، مريضة، هادئة، متأملة) أي من الشعور المكتوب.

من هنا يستخدم الرمز عند الشعراء المعاصرين للكشف عن الحياة الباطنية التي يعيشها الشاعر، سواء كانت مست هذه التجربة الباطنية الحياة الشعورية الواقعية أو لم تكن لها علاقة بها.

الهوامش

- ¹ - عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ت، ص: 16.
- ² - بدوي طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، ط03، مزينة ومنقحة، دار المريح، الرياض، 1986، ص: 243.
- ³ - محمد حسن عبد الله، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص: 179.
- ⁴ - حسن عبد الجليل يوسف، موسيقى الشعر العربي ظواهر التجديد، الهيئة المصرية، ج2، 1989، ص: 01.
- ⁵ - نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د.ت، ص: 14.
- ⁶ - وليد بن عبد الله الدوسري، دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر الحر، مؤسسة المعارف، ط01، بيروت، لبنان، 1985، ص: 163.
- ⁷ - محمد علي الكندي، الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي) دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط01، بيروت لبنان، 2003، ص: 52.
- ⁸ - حسن عبد عودة الخاقاني، الترميز في شعر عبد الوهاب البياتي (أطروحة دكتوراه) كلية الآداب، جامعة الكوفة 2006، ص: 07.

- ⁹ - حمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف ط02، القاهرة، 1978، ص: 154.
- ¹⁰ - زبير دارقى، محاضرات في الأدب الأجنبي، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة، ص: 61.
- ¹¹ - ينظر محمد علي الكندي، الرمز والقناع، م.م.س، ص: 59.
- ¹² - عز الدين إسماعيل، الرمز والقناع، م.م.س، ص: 53.
- ¹³ - المرجع نفسه، ص: 199.
- ¹⁴ - محمد علي الكندي، الرمز والقناع، م.م.س، ص: 53.
- ¹⁵ - عز الدين إسماعيل، الرمز والقناع، م.م.س، ص: 200.
- ¹⁶ - محمد علي الكندي، الرمز والقناع، م.م.س، ص: 56.
- ¹⁷ - ينظر: حسن عبد عودة الخاقاني، الترميز في شعر عبد الوهاب اليباتي، م.م.س، ص: 15.
- ¹⁸ - عز الدين إسماعيل، الرمز والقناع، م.م.س، ص: 197.
- ¹⁹ - سامية آحقو، الصورة الشعرية عند نازك الملائكة، تح: أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، (الجزائر)، العدد 06، 2010.
- ²⁰ - نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار م.م.س، ص: 237.
- ²¹ - ينظر آمنة بلعلي: أثر الرمز في بنية القصيدة المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية، ط06، الجزائر، 1995، ص: 10.
- ²² - خليل موسى، قراءات في الشعر العربي الحديث والمعاصر (دراسة) اتحاد الكتاب العرب، 200، ص: 22.